الكهنوت في الكتاب المقدّس

الخوري ميشال صقر[1]
دكتور في لاهوت الكتاب المقدّس

مقدّمة

كلّ الأديان على مرّ العصور كان فيها كهنة يرفعون فيها الصلاة والدعاء من أجل شعوبهم. لكنّ الكتاب المقدس، كلمة الله الحيّة لكلّ جيل، يخبرنا أنّ الله اختار له شعبًا كهنوتيًّا وأمّة مقدّسة، وأنّه اختار أيضًا بطريقة مميّزة بعض الأشخاص (في العهد الجديد) أو العائلات (في العهد القديم) ليمارسوا طقوسًا دينيّة لا بدّ منها، مع التقيّد بشريعة المحبّة والرحمة.

في هذا المقال، نعرض تاريخيًّا تطوّر فكرة الكهنوت في الكتاب المقدّس، مشدّدين على المراحل الأساسيّة التي مرّ بها هذا الدور الدينيّ والاجتماعيّ الرفيع.

١ – كهنوت ملكيصادق

الكاهن الأوّل الذي يرد دوره في الكتاب المقدّس بطريقة سريعة وغامضة هو ملكيصادق، وكان ذا مهمّة مزدوجة: ملك وكاهن (تك ١٤: ١٧–٢٠). لا يُذكر له نسبٌ ولا ذرّيّة، وهو بذلك صورة للمسيح الملك والكاهن حسب الرسالة إلى العبرانيّين.

كان **ملك** شليم، وتأثّرًا بمزمور ٧٦: ٣ طابق آباء الكنيسة بين "شليم" و"أورشليم". وكان أيضًا **كاهنًا** لله العليّ إذ يظهر دوره بإخراج "الخبز والخمر"، ملاقاة لأبرام العائد من حرب منتصرًا على أعدائه، "مباركًا" إيّاه ومتسلّمًا منه "العشر". رأى الآباء في "الخبز والخمر" صورة لسرّ القربان؛ أمّا "البركة" و"العشر" فهما امتياز كهنوتيّ.

٢ – كهنوت اللاويّين

إذا كان الملوك في الشعوب المتمدّنة المحيطة بإسرائيل، كمصر وما بين النهرين، يتولّون أيضًا وظيفة الكهنوت، تعاونهم طغمةٌ كهنوتيّةٌ خاضعةٌ لنظام رئاسيّ ووراثيّ في أغلب الأحيان، فسيكون الأمر مختلفًا بعض الشيء بالنسبة إلى شعب البدو، غير المنظّم، الذي كان خارجًا من مصر، هاربًا من العبوديّة؛ فموسى، الذي هو من سبط لاوي، اختاره الله قائدًا لشعبه عبر الصحراء؛ فمنذ عهد موسى، بدأ سبط لاوي بتولّي الوظائف الطقسيّة، إذ أنّ الله اختاره أيضًا وباركه (تث ٣٣: ٨–١١) وكرّسه لهذه الخدمة. وكان لموسى أخٌ اسمه هارون، اختاره الله ليكون لسانَ حال موسى (خر ٤: ١٠–١٧)، وكاهنًا يقدّم الذبائح باسم الشعب. وقد أمر الله موسى أن يلبس الكهنة ثيابًا خاصّة: "لبني هارون تصنع أقمصة وزنانير، وتصنع لهم قلانس مجد وبهاء... هذه هي الثياب التي يرتدونها: صدرة، وأفود، وجبّة، وقميص مطرّز، وعمامة، وزنّار... تصنع لهم سراويلات من الكتّان لتغطّي عري أبدانهم من الحقوَين إلى الفخذَين" (خر ٢٨: ٢–٥ و٤٢).

لا بدّ من الإشارة إلى أنّ موسى قد

(١) الكاتب هو من كهنة جبيل حائز على شهادة الدكتوراه في الكتاب المقدس جامعة الغريغوريانا في روما. درّس العهد الجديد في عدّة جامعات كاثوليكيّة في سان باولو، البرازيل. وحاليًّا يدرّس في لبنان في جامعات القدّيس يوسف، والحكمة، والأنطونيّة، وفي معهد القدّيس بولس. له مؤلّفات عدّة حول القراءة "البراغماتيكيّة" للكتاب المقدّس.

أشرك معه في الحكم والقضاء مجلس شيوخ مؤلَّف من ٧٠ شيخًا يمثّلون جميع الفئات والعائلات، وهم رؤوس العائلات والأسباط، يمارسون أعمالاً دينيّة ومدنيّة، ولهم حقوق وإنعامات خاصّة. فكلمة "شيخ" في اللغة العبريّة هي "زَقِنْ"، وقد تُرجمت إلى اليونانية بلفظة *presbuteros* التي أعطت في اللغة الفرنسيّة لفظتَي *prêtre* و*ancien*. وهنا علينا الانتباه إلى أنّه، في العهد القديم، ليس كلّ شيخ كاهنًا، أمّا في العهد الجديد فسنرى أنّ كلمة *presbuteros* ستعني، ممّا تعنيه، الشيخ الكاهن المساعد للرسول؛ فلكلمة "كاهن" مرادفها في العبريّة "كُهِنْ"، واليونانيّة *iereus*، لكنّ العهد الجديد سيفضّل أن يطلق على معاونيّ الرسل لفظة *presbuteros*.

في الصحراء كان الكهنةُ حَمَلَةَ تابوت العهد؛ وعندما وصلوا إلى نهر الأردنّ ليعبروه مع يشوع، أراد الله أن تكون أخامص أقدامهم موقفةً لمياه نهر الأردنّ (يش ٣: ١٣). وهكذا، عندما دخل الشعب أرض الميعاد مع يشوع، وُزّعت الحصص بالقرعة على أحد عشر سبطًا، أمّا لاوي فلم يُعطَ ميراثًا لأنّ إله إسرائيل وذبائحه هي كانت ميراثه (يش ١٣: ١٤ و٣٣).

٣ – كهنوت صادوق

بعد أن تحوّل المُلْك عن أدونيّا الابن البكر لداود، وصار من بعده لسليمان، فلكي يمتّن هذا الأخير سلطته، أمر بقتل أعداء المملكة لتصرّفاتهم المشينة في عهد أبيه. لكن بالنسبة إلى أبياتار الكاهن، أمر فقط بعزله قائلاً له: "إنصرف إلى حقولك لأنّك رجل يستوجب الموت. لكنّي لستُ أقتلك لأنّك حملتَ تابوت الربّ أمام داود أبي" (١ مل ٢: ٢٦). وبدل أبياتار أقام صادوق كرئيس للكهنة (١ مل ٢: ٣٥). فقد يكون صادوق أساسَ عقيدة الصدّوقيّين المعروفين في أيّام المسيح أنّهم متمسّكون بتوراة موسى، ورافضون الإيمان باليوم الآخر، وخلود النفس، وبعث الأجساد، والثواب والعقاب.

المعلوم أنّ سليمان بنى هيكلاً للربّ في أورشليم، وقصرًا واضعًا فيه خشبًا من أرز لبنان؛ فالكهنة هم الذين حملوا تابوت العهد في حفل إدخاله إلى الهيكل (١ مل ٢: ٣). وهكذا بدأت المفارقة بين عمل الكهنة، مقدّميّ الذبائح للربّ في الهيكل، وبين عمل اللاويّين الذين أصبحوا حرّاس الهيكل (١ أخ ٩: ١٨). وتنوّعت فئات اللاويّين بتنوّع وظائف الهيكل: فكان هناك المغنّون، والعازفون، والبوّابون، وكلّهم لاويّون غير كهنة. وقد نرى بذلك استباقًا لوظائف الشدياق في طقوسنا اليوم.

لن يكون ازدهار الحياة الليتورجيّة الدينيّة في أيّام المملكة سالمًا من مغالطات عدّة تنتج عن ربط سلطة الكهنوت بالملك، السلطة الدينيّة بالسلطة المدنيّة. لذلك سيكون للأنبياء دورٌ أساسيّ في إعادة الإيمان إلى صفائه.

٤ – تحذير الأنبياء للكهنة

بالرغم من تواجد أنبياء كثر ورد ذكرهم في أسفار صموئيل والملوك، فإنّ عاموس النبيّ (القرن الثامن ق.م.) هو الأوّل تاريخيًّا من سلالة الأنبياء الذين جرت العادة في تسميتهم "الأنبياء الكتّاب"، لأنّ صدى تدخّلاتهم حُفظ في كتب تحمل اسمهم؛ فمملكة الشمال حيث تنبّأ كانت تتمتّع في المجال السياسيّ بفترة من الراحة والاستقرار. لكنّ خطرًا جسيمًا كان يخيّم في الواقع على إسرائيل، إذ انّ جيوش آشور كانت تقترب من فلسطين اقترابًا مطّردًا. وفي المجال الدينيّ، خاصّة في بيت إيل، أكبر معابد مملكة الشمال، الذي شُيّد في زمن الانشقاق منافسة لهيكل أورشليم، أخذت العبادة تظهر في حفلات رائعة كان الشعب يفتخر بها، لكنّ عاموس كان يستنكرها استنكارًا شديدًا، إذ حذّرهم يومًا قائلاً: "لقد أبغضتُ أعيادكم، ولم تطب لي احتفالاتكم، إذا أصعدتم لي محرقات لا أرتضي بها.. أبعِدوا عنّي أناشيدكم، فلا أسمع عزف عيدانكم" (عا ٥: ٢١–٢٣).

أمّا في مرحلة السبي الكبير (القرن السادس ق.م.)، فقد برز نشاط حزقيّال **الكاهن** في بابل، الذي حافظ إلى آخر حياته على عقليّة الكاهن الخبير في

العبادة والليتورجيّات؛ فحسب رأيه، إنّ سبب خروج مجد الله من الهيكل، مبتعدًا عن أورشليم، يكمن في خطيئة عبادة الأوثان التي هي خيانة وزنى وبغاء. ووبّخ حزقيّال رعاة الشعب، أي رؤساءه الدينيّين والمدنيّين، على ذنوبهم قائلاً لهم: "ويل لرعاة إسرائيل الذين يرعون أنفسهم" (حز ٣٤: ٢). وهكذا هدّد باسترداد الربّ للقطيع الذي يسيئون معاملته، فيكون هو نفسه راعي شعبه (حز ٣٤: ١١).

وبعد السبي وإعادة بناء الهيكل، عاد فُتُورُ العزائم يُضعف الإيمان، فعادوا يقعون في الأخطاء القديمة من إهمال في الخدمات الطقسيّة، وقبول للرشوة، ومحاباة للوجوه، ترافقها أنواع كثيرة من المخالفات. كان ردّ فعل ملاخي قويًّا جدًّا، فوضع كلّ واحد، كاهنًا كان أم علمانيًّا، أمام مسؤوليّاته في علاقاته بالربّ وبالقريب. ومن أهمّ تحذيراته هي ما يلي: "إليكم هذه الوصيّة، أيّها الكهنة: إن لم تسمعوا ولم تجعلوا في قلوبكم أن تؤدّوا مجدًا لاسمي، أرسل عليكم اللعنة وألعن بركاتكم...، لأنّ شفتَي الكاهن تحفظان المعرفة، ومن فمه يطلبون التعليم، إذ هو رسول ربّ القوّات" (ملا ٢: ١-٧).

٥ – كهنوت زكريّا

إنتقالاً إلى العهد الجديد، لا بدّ من التوقّف على بوّابة المرور بين العهدَين للتحدّث باقتضاب عن خدمة زكريّا الكهنوتيّة ، أوّل شخصيّة في إنجيل لوقا، ومرورًا بيوحنّا المعمدان نصل إلى المسيح.

يشرح لنا لوقا أنّ زكريّا الكاهن كان من فرقة أبيّا (لو ١: ٥)؛ ففرقة أبيّا هي ثامنة الفرق الأربع والعشرين التي كانت تتناوب أسبوعيًّا على خدمة هيكل أورشليم (١ أخ ٢٤: ١-١٩). ويكمل الإنجيليّ قائلاً: بأنّ القرعة أصابت زكريّا، عملاً بالعرف الكهنوتيّ، فدخل هيكل الله ليقوم بالتبخير (لو ١: ٩)؛ فرتبة التبخير هذه كانت تتمّ مرّتين في اليوم: قبل ذبيحة الصباح، وبعد ذبيحة المساء، تُجدَّد فيها النار، ويُحرق البخور أمام الحجاب (خر ٣٠: ٦-٨). وكان شرفًا لكاهن أن يقوم بتلك الرتبة، نظرًا لكثرة عدد الكهنة. لكنّ مشيئة الله حفظت البشارة بابنه لا لكاهن، بل لفتاة غير معروفة، ولا في المدينة العظمى أورشليم إنّما في مدينة متواضعة من الجليل هي الناصرة، وبذلك يبيّن لنا الله تفضيله للمساكين، إذ من خلالهم يمرّ تاريخ الخلاص. لكنّ يوحنّا المعمدان، ابن الكاهن زكريّا، كان دوره مهمًّا إذ أعدّ طريق المخلّص.

تعمّد بسوع على يد يوحنّا المعمدان ابن الكاهن في نهر الأردنّ. والتقليد السريانيّ القديم رأى أنّ يسوع المسيح هو ملك لأنّه من سلالة داود، وهو نبيّ لأنّ أقواله وتعاليمه ضاهت وفاقت بكثير تعاليم الأنبياء؛ وقيل أيضًا إنّه استمدّ كهنوته من خلال وضع يد يوحنّا المعمدان على رأسه، وذلك واضح في رتبة السيامة الكهنوتيّة في الطقس الماروني إذ يُرتَّل:

"فلننشد طيب الصلاة...
حلّ الله في سينا،
خصّ موسى بالسلطان،
موسى أعطى هارونَ،
جريًا حتّى المعمدان؛
يوحنّا أعطى الفادي،
للرسل الفادي أعطاه،
كهنوتًا للآباءِ، يبقى في بيعة الله".

ولكن، حسب تعاليم الكنيسة، لا يمكننا القول إنّ يوحنّا المعمدان أعطى الكهنوت للمسيح، إذ أنّ كهنوته فريد ومميّز؛ فكلّ ما تقدّم في العهد القديم لم يكن إلاّ تصويرات سابقة وجدت اكتمالها في المسيح (**تعليم الكنيسة الكاثوليكية**، ١٥٤٤).

٦ – كهنوت المسيح

نرى في الأناجيل الإزائيّة كيف أنّ المسيح انتقد الوظيفة الكهنوتيّة التي تبتعد عن المحبّة والرحمة؛ فإنجيل متّى يضع على فم يسوع مرّتين كلام هوشع النبيّ: "أريد رحمة لا ذبيحة" (مت ٩: ١٣؛ ١٢: ٧)، وبذلك يبيّن لنا أنّ الدور الكهنوتيّ لا يمكن أن يقتصر على إتمام فرائض وذبائح ليتورجيّة، إنّما للرحمة المكانة الفضلى. ويشير يسوع إلى ذلك بوضوح عبر مثل السامريّ الصالح (لو ١٠: ٢٥-٣٧)؛ فكان محرّمًا

على اليهوديّ عامّة (عد ١٩: ١١) وعلى الكاهن واللاويّ خاصّة (لا ٢١: ١) أن يمسّوا جثّة ميت، وإلاّ اضطرّوا إلى التطهّر وإلى الابتعاد سبعة أيام عن خدمة الهيكل؛ فالقريب، حسب يسوع، لم يكن أحد من هذين الاثنين، إنّما السامريّ الصالح المعروف بعداوته لليهوديّ إذ عامله بالرحمة.

غير أنّه، في إنجيل يوحنّا، يظهر لنا المسيح كأنّه الكاهن والذبيحة في آنٍ معًا؛ فهو عظيم أحبار، إذ توصف ثيابه، عند اقتسامها بعد الصلب، "بالقميص غير المخيط، المنسوج كلّه من أعلاه إلى أسفله" (يو ١٩: ٢٣)، وهو بذلك كالقميص الذي كان يلبسه عظيم الكهنة عند اليهود، وهذه إشارة إلى أنّ يسوع، بالنسبة إلى يوحنّا، هو الكاهن الأعظم. وفقط في يوحنّا أيضًا نجد يسوع كحمل الله في مرجعَين فريدَين: الأوّل عندما رأى يوحنّا المعمدان آتيًا نحوه (يو ١: ٢٩)، والثاني عندما جاؤوا إلى يسوع ووجدوه قد مات، فلم يكسروا ساقَيه، كالحمل الفصحيّ الذي لا يُكسر له عظم (يو ١٩: ٣٦). وبذلك أرانا يوحنّا أنّ يسوع الحمل الفصحيّ هو نفسه كان كاهنَ ذبيحته؛ ونجد لذلك صدًى في القدّاس الماروني عند رفع الكأس: "يا حملاً صار لنفسه حبرًا مقرِّبًا". وفي يوحنّا أيضًا، قبيل آلام المسيح، صلّى يسوع (يو ١٧) صلاة كهنوتيّة بامتياز، إذ جعل من نفسه وسيطًا بين تلاميذه والآب.

أمّا الكتاب الأساسيّ الذي يتحدّث عن كهنوت المسيح في العهد الجديد، فهو الرسالة إلى العبرانيّين. وباختصار، يرى كاتب الرسالة في كهنوت المسيح علاقة مثلّثة بالعهد القديم:

١) يراه **مواصلاً**، إذ يظهر قصد الله الثابت الأمين في تاريخ الخلاص (عب ٥: ١ ؛ ٧؛ ٩: ١٣-١٤).

٢) **ناقضًا** وملغيًا طقوس الكهنوت القديم، إذ جاءت مكانها ذبيحة جديدة أفضل، هي ذبيحة نفسه (عب ٩:١١-١٢؛ ٢٤-٢٦).

٣) أشرك **المؤمنين** في هذا الكهنوت، مُصَيِّرًا إيّاهم مقدَّسين بالقربان الذي قُرّب، وبالغين الكمال والمجد والخلاص (عب١٠: ١٠ و١٤).

٧ – الكهنوت في أيّام الرسل

المعلوم، حسب التقليد الكنسيّ، أنّ الأساقفة هم خلفاء الرسل؛ فالمسيح أقام اثني عشر رسولاً، وهذا العدد اثنا عشر له قيمة معنويّة ليس فقط كبدلٍ من أسباط إسرائيل الإثني عشر، إنّما للدلالة على المجمعيّة السينودسيّة (collégialité) التي يتحلّى بها الأساقفة مجتمعين مع رأسهم بطرس.

أمّا في العهد الجديد فهناك ثلاث كلمات غير واضحة المعالم في بداية الكنيسة، كما هي الحال اليوم في تراتبيّتها الهرميّة؛ فلفظة *apostolos* التي تخصّ الإثني عشر بالتحديد، نرى بولس الرسول يلقّب ذاته "رسولاً" في بداية غالبيّة رسائله. ولفظة *episcopos*، التي من المفترض أن تعني فقط المسؤول الأوّل في الكنيسة، نجدها في خطاب بولس الوداعيّ لشيوخ أفسس، عائدًا من رحلته الثالثة إلى أورشليم حيث سيُعتقل، تعني هؤلاء الشيوخ أنفسهم؛ فكاتب أعمال الرسل يقول إنّ بولس استدعى في ميليطس شيوخ (*presbuteros*) كنيسة أفسس (أع ٢٠: ١٧) وقال لهم: "تنبّهوا لأنفسكم ولجميع القطيع الذي جعلكم الروح القدس مسؤولين (*episcopos*) عنه لتسهروا على كنيسة الله" (أع ٢٠: ٢٨). وفي رسالته طلب بولس الرسول إلى تلميذه تيطس، الذي يصفه كمعاون له – لا أكثر – (٢ كور ٨: ٢٣)، أن يقيم شيوخًا (*presbuteros*) في كلّ بلدة في جزيرة كريت (تي ١: ٥).

لكن من الواضح والمؤكّد أنّ هناك فَرْقًا بين الشماس (*diakonos*) وبقيّة الخدم الكهنوتيّة؛ فمن مهمّات الشمامسة خدمة الموائد والأرامل (أع ٦: ١-٢)، أمّا من مهمّات الرسل والشيوخ، التبشير بالكلمة (أع ٦: ٢) الصلاة، العماد، الإفخارستيّا غفران الخطايا والمسح بالزيت (يع ٥: ١٤).

يبدو أنّه في أيّام الرسل كان مسموحًا للأساقفة أن يكونوا متزوّجين، والتقليد الكنسيّ ألغى هذا العرف. ومجرّد قراءة سريعة لصفات الأسقف (١ تيم

٣: ١–٧؛ تي ١: ٧–٩)، صفات الكاهن (تي ١: ٥–٦)، وصفات الشمّاس (١ تيم ٣: ٨–١٣)، نرانا في بداية تراتبيّة هرميّة تنظّمها الكنيسة في ما بعد، وتتوارثها على مدار الأجيال.

خلاصة

يضعنا الكتاب المقدّس في تطوّر ملحوظ بالنسبة إلى الكهنوت؛ فمن الكهنوت الوراثيّ إلى كهنوت المسيح الجديد والفريد، إلى الكهنوت العامّ، والكهنوت الخدميّ. لكن مع القدّيس توما الأكوينيّ نقول: "المسيح هو الكاهن الحقيقيّ الأوحد، وما الآخرون سوى خدّامه".

كان تَنَاقُل الخدمة الكهنوتيّة في العهد القديم يتمّ من خلال سبط لاوي، وبالتحديد من خلال سبط هارون، أمّا في العهد الجديد فأصبح عبر "وضع اليد" (١ تيم ٤:١٤؛ ٢ تيم ١: ٦)، مع العلم أنّ الاختيار هو دائمًا للربّ وليس من صاحب الدعوة: "لم تختاروني أنتم بل أنا اخترتكم وأقمتكم لتذهبوا فتثمروا ويبقى ثمركم" (يو ١٥: ١٦).

المهمّة المثلّثة المطلوبة اليوم من الكهنة ممكن وجود جذورها في الكتاب المقدّس؛ فالتعليم هو صدى لكلام ملاخي النبيّ: "من فم الكاهن تُطلب المعرفة" (ملا ٢: ٧). والتقديس كان في العهد القديم يصير بواسطة الذبائح التي تغفر الخطايا، أمّا في العهد الجديد فقد أوكل يسوع ينابيع القداسة ومجاري النعمة إلى الرسل، وقد نظّمتها الكنيسة في ما بعد في سبعة أسرار، يجد كلّ واحد منها مصدره في حياة المسيح والرسل وتعليمهم. أمّا التدبير، وهو الصفة الملوكيّة للكهنوت، فنجدها في العهد القديم في شخصيّة ملكيصادق الملك والكاهن، ونراها أيضًا في كلّ من موسى وهارون وصادوق (الملازم للملك سليمان)، ونراها مع المسيح تأخذ منحة النظام المرتكز على المحبّة والرحمة.

إنّ المسيح، بذبيحة الصليب، هو الكاهن "الوسيط الأوحد بين الله والناس" (١ تيم ٢: ٥). بكهنوته يشترك جميع المؤمنين، إذ جُعلوا "مملكة من الكهنة لإلهه وأبيه" (رؤ ١: ٦). عسى أن يجدنا يوم مجيئه وكلاء أمينين عاقلين، نعطي الطعام في حينه (لو ١٢: ٤٢)، ونسعى جادّين في طريق القداسة.

المراجع

Collectif, *La tradition sacerdotale. Études sur le sacerdoce*, BFCThL 7, Lyon 1959.

COPPENS J., ed., *Sacerdoce et célibat. Études historiques et théologiques*, BEThL 28, Louvain 1971.

JEAN CHRYSOSTOME, *Sur le sacerdoce*, SC 272, Paris 1980.

LEON-DUFOUR, X. (éd.), *Vocabulaire de Théologie Biblique*, Paris 1962, 19712.